بلاط الشـــهداء

بعد الف ومائتى عام

للاستاذ محمد عبد الله عنان

— ٢ —

وكان أثناء غاراته أو رحلاته في (اكوتين) قد اتصل بأميرها الدوق أودو ، وتفاهم معه، وكان الدوق مذ رأى خطر الفتح الاسلامى يهدد ملكه يسعى إلي مهادنة المسلمين ، وقد فاوضهم فعلا ، فانتهز كارل مارتل محافظ القصر وزعيم الفرنج هذه الفرصة لاعلان الحرب على الدوق ، وكان يخشى نفوذه واستقلاله ، وغزا اكوتين مرتين وهزم الدوق فكان أودو في الواقع بين نارين يخشى الفرنج من الشمال والعرب من الجنوب ، وكانت جيوش كارل مارتل تهدده وتعيث فى أرضه (سنة ٧٣١ م) فى نفس الوقت الذى سعى فيه عثمان بن أبى نسعة لمحالفته والاستعانة به على تنفيذ مشروعه فى الخروج على حكومة الاندلس والاستقلال بحكم الولايات الشمالية ، فرحب الدوق بهذا التحالف وقدم ابنته الحسناء (لاميجيا) عروسا لعثمان ، وفي بعض الروايات أن ابن أبى نسعة أسر ابنة الدوق في بعض غاراته على اكوتين ثم هام بها حبا وتزوج منها . وعلى أى حال فقد وثقت المصاهرة عرى التحالف بين الدوق والزعيم المسلم ، ورأى ابن أبي نسعة كتمانا لمشروعه أن يسبغ على هذا الاتفاق صفة هدنة عقدت بينه وبين الفرنج ، ولكن عبد الرحمن ارتاب في أمر الثائر ونياته ، وأبى قرار الهدنة التى عقدها ، وأرسل إلى الشمال جيشا بقيادة ابن زيان للتحقق والتحوط لسلامة الولايات الشمالية ، ففر ابن أبي نسعة من مقامه بمدينة الباب [1] الواقعة على (البرنيه) إلى شعب الجبال الداخلية فطارده ابن زيان من صخرة الى صخرة حتى أخذ وقتل مدافعا عن نفسه ، وأسرت زوجه لاميجيا وأرسلت إلى بلاط دمشق حيث زوجت هناك من أمير مسلم [2] . ولما رأى اودو ما حل بحليفه واستشعر الخطر الداهم تأهب للدفاع عن مملكته ، وأخذ الفرنج والقوط فى الولايات الشمالية يتحركون لمهاجمة المواقع الاسلامية ، وكان عبد الرحمن يتوق إلى الانتقام لمقتل السمح وهزيمة المسلمين عند اسوار تولوشة ، ويتخذ العدة منذ بدء ولايته لاجتياح مملكة الفرنج كلها ، فلما رأي الخطر محدقا بالولايات الشمالية لم ير بدأ من السير إلى الشمال قبل أن يستكمل كل اهبته، على أنه استطاع أن يجمع أعظم جيش سيره المسلمون إلى (غاليا) منذ الفتح ، وفي أوائل سنة ٧٣٢ م (أوائل سنة ١١٤ هـ) سار عبد الرحمن إلى الشمال مخترقا أراغون (الثغر الأعلى) ونافار (بلاد البشكنس) ودخل فرنسا فى ربيع سنة ٧٣٢ م ، وزحف توا على مدينة (آرل) الواقعة على نهر الرون لتخلفها عن أداء الجزية واستولى عليها بعد معركة عنيفة نشبت على ضفاف النهر بينه وبين قوات الدوق أودو ، ثم زحف غربا وعبر نهر الجارون وانقض المسلمون كالسيل على ولاية اكوتين [3] يثخنون فى مدنها وضياعها، فحاول أودو أن يقف زحفهم ، والتقى الفريقان على ضفاف الدوردون فهزم الدوق هزيمة فادحة ، ومزق جيشه شر ممزق ، قال ايزيدور الباجي : « والله وحده يعلم كم قتل فى تلك الموقعة من النصارى » ، وطارد عبد الرحمن الدوق حتي عاصمته بوردو (بردال) واستولى عليها بعد حصار قصير ، وفر الدوق في نفر من صحبه إلى الشمال ، وسقطت اكوتين كلها فى يد المسلمين ، ثم ارتد عبد الرحمن نحو الرون كرة أخرى ، واخترق الجيش الاسلامى برجونيا واستولى على ليون وبيزانصون [4] ووصلت سرياته حتي صانص التى تبعد عن باريس نحو مائة ميل فقط ، وارتد عبد الرحمن بعد ذلك غربا إلى ضفاف اللوار ليتم فتح هذه المنطقة ثم يقصد إلي عاصمة الفرنج [5] . وتم هذا السير الباهر ، وافتتح نصف فرنسا الجنوبى كله من الشرق إلى الغرب فى بضعة أشهر فقط . قال أدوار جيبون — « وامتد خط الظفر مدى ألف

---

(١) واسمها بالقشتالية Cuidad de la Peurta وقد كانت تقع على احدى ممرات البرنيه وتسمي احيانا بوبكاردا

تحيط الرواية سيرة لاميجيا وزوجها بكثير من القصص الخيالية الشائقة التى اتخذت فيما بعد مستقي لخيال بعض الكتاب والشعراء غير ان معظم هذه القصص لايخرج عن حد الاساطير

(٢) كانت امارة اكوتين فى ذلك الحين تمتد بين نهر الرون شرقا وخليج وسقونية غربا وبين اللوار شمالا ونهر الجارون جنوبا وتشغل من مقاطعات فرنسا الحديثة اجويان وبيرجور وسانتونج بواتو وقنده وجزءا من انجو

(٣) وهي مسقط راس الشاعر الفرنسى الاشهر فكتور هوجو

(٤) يقدم كاردون شرحا آخر لسير عبد الرحمن فيقول . انه زحف اولا على آرل وحاصرها فبادر الكونت الي انجادها فلقيه عبد الرحمن وهزمه والجاه الى الفرار ثم عبر عبد الرحمن نهر الجارون واستولى على بوردو . وكان الكونت قد جمع جيشا جديدا وحاول رده وهزمه فهزم مرة أخرى . ثم اخترق عبد الرحمن بيرجور وسانتونج ونواتو وهو يثخن فى تلك الانحاء حتى انتهى الى تور Cardonne ; Hist.de L'Afrique et de L'Espagne I. 129 ولكن عبد الرحمن اقتحم وادى الرون ايضا كما بينا وقد شرحنا سيره طبقا لجميع الروايات مجتمعة وطبقا للمواقع الجغرافية التى تتعلق بهذه الغزوة . وقد يكون ان عبد الرحمن لم يسر بنفسه شمالا نحو بورجونيا ولكن الجيش الاسلامى اقتحم هذه الانحاء بلا ريب .

(٥) الفصل الثاني والخمسون Roman Empire

ميل من صخرة طارق إلى ضفاف اللوار. وقد كان اقتحام مثل هذه المسافة يحمل العرب إلى حدود بولونيا وربي ايكوسيا. فليس الرين بامنع من النيل أو الفرات، ولعل أسطولا عربيا كان يصل إلى مصب التيمز دون معركة بحرية، بل ربما كانت أحكام القرآن تدرس الآن فى معاهد اكسفورد وربما كانت منابرها تؤيد لمحمد صدق الوحى والرسالة.

أجل كان اللقاء الحاسم بين الاسلام والنصرانية، والشرق والغرب، على وشك الوقوع. وكان اجتياح الاسلام للعالم القديم سريعاً مدهشا، فانه لم يمض على وفاة النبي العربي نصف قرن، حتى سحق العرب دولة الفرس الشامخة، واستولوا على معظم أقطار الدولة الرومانية الشرقية من الشام إلى أقاصى المغرب، وقامت دولة الخلافة قوية راسخة الدعائم فيما بين السند شرقا والمحيط غربا، وامتدت شمالا حتى قلب الأناضول، وكانت سياسة الفتح الاسلامى مذ توطدت دولة الاسلام ترمى الى غاية أبعد من ضم الأقطار وبسطة السلطان والملك. فقد كان الاسلام يواجه فى الأقطار التى افتتحها من العالم القديم، أنظمة راسخة مدنية واجتماعية، تقوم على أصول وثنية أو نصرانية، وكانت النصرانية قد سادت أقطار الدولة الرومانية منذ القرن الرابع، فكان على الخلافة أن تهدم هذا الصرح القديم وأن تقيم فوق انقاضه فى الأمم المفتوحة نظما حديثة، تستمد روحها من الاسلام وان تذلل النصرانية لصولة الاسلام سواء بنشر الاسلام بين الشعوب المفتوحة أو باخضاعها من الوجهة المدنية والاجتماعية لنفوذ الاسلام وسلطانه، وكان هـذا الصراع بين الاسلام والنصرانية قصير الأمد فى الشام ومصر وافريقية، فلم يمض نصف قرن حتى غير الاسلام هذه الامم بسيادته ونفوذه، وقامت فيها مجتمعات اسلامية قوية شاملة، وغاضت الأنظمة والأديان القديمة، ثم دفعت الخلافة فتوحها الى أقاصى الأناضول من المشرق وجازت الى اسبانيا من المغرب. فاما فى المشرق فقد حاول الاسلام أن ينفذ الى الغرب من طريق قسطنطينية، وبعثت الخلافة جيوشها واساطيلها الزاخرة الى عاصمة الدولة الشرقية مرتين: الأولى فى عهد معاوية بن أبى سفيان سنة ٤٨ هـ (٦٦٨ م) والثانية في عهد سليمان بن عبد الملك سنة ٩٨ هـ (٧١٧ م) وكانت قوى الخلافة فى كل مرة تبدى فى محاصرة قسطنطينية غاية الاصرار والعزم والجلد، ولكنها فشلت فى المرتين وارتدت عن اسوار قسطنطينية منهوكة خائرة.

« يتبع »

الى روح شوقي بك

خيم الليـــل وفي آفاقه ... شهب ترمى الى الارض سناها
ملكت عينٌ كئيب عاشق ... قد رعته مذ تبدت ورعاها
شاعر قـد ضاقت الدنيا به ... فرنا شوقاً الى رحب سماها
روحه الثكلى بكت فقد المنى ... اين للباكى اسى مثل اساها؟
بات يدعو الله فى احزانه ... عله يشفى من النفس ضناها
« أطلق اللهم قيدى في الهوى ... وأبنْ عن مهجتى الحرى جواها
وأعد نفسى الى حيث الورى ... في سماء الحب لم تعبد سواها
كل يوم للردى سخرية ... تجرح القلب وللناس صداها
تتراءي لى تهاويل الاسى ... بين خذلان حياتى ورجاها
كحسان عاريات تكتسى ... من لهيب النار مايدمي حشاها
واثبات تتنزى حسرة ... والمنايا تتهادى فى خطاها
كلما في الليـل مالت نجمة ... خلتها نفسى دهاها مادهاها
أو رأيت الطير فى دوحته ... والخريف السوء عرّاها حلاها
خلته العاشق فى وحـدته ... واجماً يذكر اياماً قضاها
عـذبات الانس ما عانقتها ... وثمار اللهو لم اجن جناها
زهرة الجثمان في ريعانها ... وركاب العمر لم تبلغ مداها
والامانى لم تزل فى فجرها ... باسمات الثغر والأمن غطاها
عطفت روحي على ريحانها ... عطفة الام على مهـد فتاها
ثم ولت وهى عبري بعدما ... لثمت منها خدوداً وشفاها
غالهـا الدهر بسهم صائب ... فغدت تذبل فى زهو صباها »

* * *

ثم فاضت روحـه طاهرة ... وجرت فى مقلة الشمس دماها
صـدح البلبل لمـا اشرقت ... وصداح الطير نوع من بكاها

حلب — عمر ابو قوس

رعاية

ماأنتَ فى ثوبك بدر الدجى ... كلا ولا أنت غزال شدَنْ!
أنت وربي فتنة صُورتْ ... للناس من كل أنيقٍ حَسن
تستأسرُ الآهَ فتهفو لدي ... مرآك من كل فؤادٍ فتن
لاتحتجب بالبعـد عنا فما ... يعرف فضل الحسن إنْ لم يَبن
وأنت فى ذاتك سر وذا ... حسنك في أبصارنا قد علن
يا نعمتي في محنتى ، داوني ... يا سكنى إما تجافى السكن
تعال زَوِّد شفتى قبلةً ... من قبل أن يُسرع فيك الزمن

حمص — رفيق فاخورى